الشَّيْخُ عبدُ القادرِ الجَيلانيُّ
إمامُ العارِفِينَ رضي الله عنه
(470 ـ 561هـ)

الشَّيْخُ عبدُ القادرِ الجيلانيُّ، إمامُ العارفينَ، وصاحبُ الجَنابِ الرَّفيعِ، المُؤيَّدُ بالكراماتِ والأَحوالِ النُّورانيَّةِ مِنَ اللهِ السَّميعِ البَصيرِ، مِنْ عُلماءِ المُسلمينَ الَّذينَ عَرجوا بِعلمِهِمْ وعَملِهِمْ إلى المَقاماتِ العَليَّةِ، وسَعِدوا بِحالةِ القُربِ والوصالِ الدَّائِمِ معَ السَّماءِ، فَأَفاضَ اللهُ عليهِ مِنْ فيوضاتِ رَحمتِهِ، وأَنعمَ عليهِ مِنْ بَركاتِهِ ما كَشفَ لَهُ حجابَ البَصرِ والبَصيرَةِ، فَسعَى في الأَرضِ عَلى طريقَةِ الأَنبياءِ والعُلماءِ الرَّبانيينَ، العاملينَ في دعوةِ العبادِ إلى الهدايَةِ والرَّشادِ.

اجتهدَ هذا الشيخُ في إصلاحِ القُلوبِ المَيتةِ الخربَةِ، وزرعَ في جَنباتِها الخوفَ والخشيَةَ مِنَ اللهِ، في وقتٍ كانَ العبادُ فيهِ أَحوجَ ما يَكونونَ إلى عالم لِلعقلِ والقلبِ مَعاً يَرشدُهُمْ إلى نورِ الهِدايَةِ والإيمانِ، ويُزَكِّيهِمْ ويُعلِّمُهُم الكتابَ والحكمةَ، في مُجتمعٍ تَلاعَبَتْ بِهِمْ فيهِ الأَهواءُ والشَّهواتُ، وتَلاطمَتْهُمْ فيهِ ظُلماتُ الجَاهِلِيَّةِ الجَهلاءِ، وغَزا قُلوبَهُمْ فيهِ، حبُّ المالِ والجاهِ، فَقدَّسوا الأَشخاصَ والحُكَّامَ كَتقديسِ المُشركينَ والكُفَّارِ

لِلأَوثانِ والأَصنامِ، وتَهافَتوا عَلى أَبوابِ السَّلاطِين والأُمراءِ والأَغنياءِ، وهَجروا الوقوفَ عَلى عَتباتِ السَّماءِ واستجداءَ العَونِ مِنَ اللهِ ذي اليدِ المعطاءِ.

وَسطَ هذا الخِضَمِّ الَّذي تَعصفُ فيهِ ظُلماتُ النِّفاقِ، وقفَ الشَّيْخُ عَبدُ القادرِ الجيلانيُّ يوقظُ العُقولَ والقلوبَ مِنْ سُباتِها، ويَحفزُ الهِمَمَ لِلعودةِ إِلى رِحابِ الإِيمانِ، وإِلى ملاذِ الإِسلامِ المُتمثِّلِ بِالمَنهجِ الرَّبانيِّ في الكتابِ والسُّنَّةِ، ويدعو إِلى اللهِ، ويُصلح في النَّاسِ والحياةِ، وهوَ مؤمنٌ أَنَّ مَنْ يَحملُ مشعلَ الهدايَةِ والدَّعْوَةِ والإِصلاحِ بِصدقٍ وإِخلاصٍ سَوفَ يَكونُ النَّجاحُ والتَّوفيقُ حليفَهُ بِإِذنِ اللهِ الواحدِ المنَّانِ.

كما أَثمرَتْ جُهودُ الشَّيْخِ عَبدِ القادرِ الجيلانيِّ في نفوسِ غيرِ المُسلمينَ، وانتشَرَتْ دَعوتُهُ بين صَفوفِ اليَهودِ والنَّصارَى، فَأَقبلوا يَدخلونَ في دينِ اللهِ أَفواجاً، بَعدَ أَنْ أَدركوا أَنَّ الإِسلامَ هوَ الدِّيْنُ الحقُّ، وأَنَّهُ خاتمُ أَديانِ السَّماءِ، فَكانَ لا يَخلو مجلسُ إِمامِ العارفينَ مِنْ وافدٍ جديدٍ إِلى دينِ اللهِ في اللَّيلِ والنَّهارِ.

ولَمْ تَقتصرْ حَركةُ إِمامِ العارفينَ الإِصلاحيَّةُ عَلى الجانبِ الدِّيني فَقَطْ، وإِنَّما أَصابَتْ بِإِشراقِها ونورِها الجانبَ الاجتماعيَّ أَيضاً، وأَحدَثَتْ تَأثيراً عَظيماً في فئاتِ المُجتمعِ وطَبقاتِهِ، فَزالَتِ الطَّبقيَّةُ بينَ النَّاسِ، وتَهدَّمَتِ الفَجوةُ الَّتي كانَتْ بينَ الحاكمِ والمَحكومِ، وتَلاقَتِ القلوبُ عَلى مَحبَّةِ الشَّيْخِ إِمامِ العارفينَ، فَكانَ الجميعُ يَجلسونَ إِليهِ جُلوسَ التِّلميذِ المُتطلِّعِ إِلى نَصائِحِ أُستاذِهِ المُشفقِ الأَمينِ، وقَدْ زالَتْ مِنْ بينِهِمْ كُلُّ أَسبابِ التَّمييزِ الطَّبقيِّ، وكُلُّ أَعرافِ الجَاهِلِيَّةِ الجَهلاءِ الَّتي أَيقَظَتْها حياةُ البَذخِ والتَّرفِ، والولاءُ لِغيرِ اللهِ ﷻ.

لَقَدْ جَدَّدَ إِمامُ العارفينَ الصِّلةَ بينَ الأَرضِ والسَّماءِ، وقَضَى حياتَهُ في تَعميرِ القُلوبِ بِمحبَّةِ اللهِ ﷻ ورَسولِهِ ﷺ وفي إِصلاحِ العلاقَةِ بينَ الخالقِ والمَخلوقِ مُذكِّراً النَّاسَ بِوجوبِ طاعةِ عَلَّامِ الغُيوبِ واتِّباعِ هَديِ الرَّسُولِ، فَدوَّنَ التَّاريخُ اسمَهُ في سِجلِّ المُصلحينَ الخالدينَ، والدَّاعِينَ إِلى رَبِّهِمْ بِالحكمةِ والمَوعظةِ الحَسَنةِ.

❁ ❁ ❁

هوَ الشَّيْخُ الرَّبانيُّ، والهيكلُ الصَّمدانيُّ، القطبُ الأَعظمُ، والغَوثُ الفَردُ الأَفخمُ، أَبو مُحمَّدٍ محيي الدِّينِ عبدُ القادرِ ابنُ أَبي صالحٍ بنِ أَبي عبدِ اللهِ بنِ يَحيَى الزَّاهدِ بنِ مُحمَّدِ بنِ داؤدَ بنِ موسَى بنِ عبدِ اللهِ بنِ موسى الجَونِ بنِ عبدِ اللهِ المَحضِ بنِ الحَسَنِ المُثَنَّى بنِ الإِمامِ الحَسنِ المُجتَبَى بنِ أَميرِ المُؤمنينَ علي بنِ أَبي طالبٍ ﷺ، المُلَقَّبُ بِالجيلانيِّ نسبَةً إِلى بَلدتِهِ «جيلانَ»، وهيَ مقاطعةٌ مِنْ بِلادِ فارس كانَ يُقالُ لَها بِلادُ الدَّيلمِ ـ ويُقالُ لَجيلانَ: كيلانَ أَيضاً ـ وهيَ مِنْ أَجملِ بِلادِ فارس، وعُرفَ أهلُها بِولائِهِمْ لآلِ البيتِ.

فَهوَ مِنَ الأُسرةِ الهاشميَّةِ الكريمةِ، وفَرعٌ مِنْ فُروعِ الدَّوحةِ المُحمديَّةِ العليَّةِ، ومِنَ الآلِ الطاهرِ الَّذي حباهُ اللهُ تَشريفاً وتَكريماً، ومِنْ أَكابرِ أَولياءِ اللهِ تَعالَى الَّذينَ نالوا مِنهُ الوَفاءَ والكرامَةَ، ومِنْ مُحبيهِ المُقتَدَى بِهِمْ في جمالِ الأَخلاقِ، وسَطعَ نورُ كمالِهِ، وأَشرَقَتْ شَمسُ صِفاتِهِ، وتَواترَتْ كَراماتُهُ وكَلماتُهُ، وانعَقَدَ الإِجماعُ عَلى ولايَتِهِ.

قالَ الشَّيْخُ موفَّقُ الدِّين صاحبُ «المُغني»: «لَمْ أسمَعْ عَنْ أَحدٍ يُحكَى عَنهُ مِنَ الكراماتِ أَكثرَ مِمَّا يُحكَى عَن الشَّيْخِ عبدِ القادرِ، وذَكرَ الشَّيْخُ العزُّ بنُ عبدِ السَّلامِ: إِنَّهُ لَمْ

تَتَواترْ كراماتُ أَحد مِنَ المشايخ إِلَّا الشَّيْخَ عَبدَ القادرِ، فَإِنَّ كراماتِهِ نُقلِتْ بِالتَّواترِ»[1].

ويَذكرُ الإِمَامُ الأَلوسيُّ، صاحبُ التَّفسيرِ الشَّهيرِ في كتابِهِ «جلاءِ العينينِ» عَنْ شَيخِ الإِسلامِ «ابن تَيميَّةَ» ما يُؤيِّدُ هذا الكلامَ عَنْ كراماتِ وولايةِ إِمامِ العارفينَ.

ويَذكرُ «اليافعيُّ» في كتابِهِ «مرآةِ الجنانِ وعبرةِ اليَقظانِ» عَنْ جَدِّ، وأُمِّ، وعَمَّةِ الشَّيْخِ عبدِ القادرِ، فَيقولُ: «وأُمُّهُ أُمُّ الخيرِ، أَمَةُ الجَبَّارِ، فاطمةُ بنتُ أَبي عبدِ اللهِ الصَّومعيِّ رضي الله عنهم (الزَّاهدِ المعروفِ)، وكانَ لَها حَظٌّ وافرٌ مِنَ الخيرِ والصَّلاحِ، والصَّومعيُّ مِنْ جُملةِ مَشايخِ جيلانَ ورُؤساءِ زُهادِهِمْ، ولَهُ الأَحوالُ والكراماتُ الجليَّةُ، وأَخوهُ الشَّيْخُ أَبو أَحمدَ عَبدُ اللهِ ـ سِنُّهُ دونَ سِنِّهِ ـ نشأَ نُشوءاً صالحاً في العلمِ والخبرةِ، وعَمَّتُهُ (عمَّةُ الشَّيْخِ عبدِ القادرِ) المرأةُ الصَّالحةُ أُمُّ مُحمَّدٍ عائِشَةُ بنتُ عبد اللهِ ذاتُ الكراماتِ الظَّاهرةِ».

رويَ أنَّ بِلادَ جيلانَ أَجدَبَتْ مرَّةً، واسْتَسقَى أَهلُها، فَلَمْ يُسقَوا، فَأَتَى المَشايخُ إِلى دارِ الشَّيخةِ عائشَةَ المَذكورةِ، وسَأَلوها الاستسقاءَ لَهُمْ. فَقامَتْ إِلى رحبةِ بيتِها، وكَنَّسَت الأَرضَ، وقالَتْ:

يا رَبُّ.. أَنا كَنَّستُ، فَرُشَّ أَنتَ. قالَ: فَلَمْ يَلبَثوا أَنْ مَطرَتِ السَّماءُ كَأَفواهِ القُرَبِ، فَرَجعوا إِلى بيوتِهِمْ يَخوضونَ في الماءِ.

وأَمَّا صِفةُ الشَّيْخِ عبدِ القادرِ، فَرُويَ: أَنَّهُ كانَ نَحيفَ البَدنِ، رِبعَ القامةِ، عَريضَ

---

(1) قلائد الجواهر للكيلاني ص 9 ـ 10.

الصَّدرِ، عريضَ اللِّحيَةِ وطويلَها، أَسمرَ مقرونَ الجبينِ، أَدعجَ العينينِ، ذا صوتٍ جَهوريٍّ، وسَمتٍ بَهيٍّ، وقَدرٍ عليٍّ، وعلمٍ وفيٍّ.

ولِدَ الشَّيْخُ عَبدُ القادرِ الجيلانيُّ في جيلانَ سنةَ (470) هجريَّةً، ونَشأَ وتَرعرَعَ فيها وعاشَ وسَطَ هذا الجوِّ الإِيمانيِّ الَّذي تَشُعُّ مِنهُ أَنوارُ العِلمِ والعرفانِ، ولَمَّا بَلغَ الثامنةَ عشرَ مِنْ عُمرِهِ تَوجَّهَ إِلى بَغدادَ طَلباً لِلعلمِ، وتَحصيلاً لِلمعرفَةِ العَقليَّةِ والقَلبيَّةِ مَعاً.

❁ ❁ ❁

عَكفَ الشَّيْخُ عبدُ القادرِ الجيلانيُّ عَلى مُلازمةِ مجالسِ العُلماءِ في بَغدادَ، فَتتلمذَ في اللُّغةِ وعُلومِها عَلى أَبي زكريا التَّبريزيِّ المعروفِ بِالخَطيبِ الَّذي كانَ أَحدَ أَئمَّةِ اللُّغةِ في عَصرِهِ، وفي الفقهِ عَلى إِمامِ فُقهاءِ الحنابلةِ وصاحبِ التَّصانيفِ المُشتهرةِ أَبي الوفاءِ عليِّ بنِ عقيلٍ البَغداديِّ المُظَفريِّ.

وفي الحديثِ تتلمذ عَلى كبيرِ مُحدِّثي عَصرِهِ أَبي غالبٍ مُحمَّدِ بنِ الحسنِ الباقلَّاني. وفي علمِ التَّصوفِ والحقيقَةِ عَلى شَيخِ شيوخِ الطُّرقِ السَّنيةِ صاحبِ المَقاماتِ العَليَّةِ أَبي عَبدِ اللهِ حمَّادِ بنِ مُسلمِ الدَّبَّاسِ، ثُمَّ أَكملَ الطَّريقَةَ وعلمَ الحقيقَةِ عَلى يَدِ القاضي والفَقيهِ أَبي سَعيدٍ المُباركِ بنِ عليٍّ المخرَّمي، وأَخذَ عَنهُ الإِجازةَ فيها.

وبعدَ إِتمامِهِ دراسَتَهُ العلميَّةَ والرُّوحيَّةَ، جلسَ لِلتدريسِ والوَعظِ والإِرشادِ في مَدرسَةِ شَيخِهِ أَبي سَعيدٍ المخرَّمي، فَلمعَ صيتُ إِمامِ العارفينَ العلميُّ، وعَلا ذِكرُهُ بينَ العُلماءِ، وفُوِّضَ إِليهِ أَمرُ مَدرسَةِ شَيخِهِ المخرَّميِّ، فَعملَ عَلى تَوسيعِها، وعَلى تَنويعِ الدِّراسَةِ فيها،

فَاسْتَقطبَ بِذلِكَ طلبَةَ العلمِ مِنْ جميعِ أَنحاءِ العالمِ الإِسلاميِّ، كما جذبَ إِليها كبارَ العُلماءِ والأَعيانِ، وانتَهَتْ إِليهِ الرِّئاسَةُ الرُّوحيَّةُ والدينيَّةُ والعلميَّةُ في البِلادِ، وتَهافَتَ النَّاسُ عَلى مَجلسِهِ العلميِّ الَّذي كانَ يُلقي فيهِ دروسَ العلمِ والطَّريقَةِ، وتَزاحمَ الخلقُ عَلى حلقَاتِ الذِّكرِ الَّتي كانَ يَعقدُها بِشَكلٍ يَوميٍّ، وشاعَتْ عَنهُ الطَّريقَةُ القادريَّةُ المعهودةُ في الذِّكرِ والتَّعبُّدِ، والتَّربيَةِ الرُّوحيَّةِ والخُلقيَّةِ، وصارَ لَهُ فيها تَلاميذُ وأَتباعٌ مِنَ الأَعيانِ والعُلماءِ، وانتشَرَتْ عَنهُ هذِهِ الطَّريقَةُ في مُختلفِ أَصقاعِ العالمِ الإِسلاميِّ، ولَمْ يَزَلْ لَها أَشياعٌ وأَتباعٌ إِلى يَومنا هذا في كُلِّ مَصرٍ ومَدينةٍ وقَريةٍ، كما لا يَزالُ لَها أَثرُها الفعَّالُ في التَّربيَةِ الرُّوحيَّةِ والتَّهذيبِ الأَخلاقيِّ، وكَذَلِكَ في جَذبِ وتَشجيعِ النَّاسِ إِلى التزامِ طَريقِ الهدايَةِ والرَّشادِ.

وكَما يُصوِّرُ المُؤَرِّخُونَ عَنْ إِمامِ العارفينَ، أَنَّهُ استطاعَ بِجهدِهِ في العلمِ والعبادةِ أَنْ يُعيدَ لِلدِّينِ هَيبَتَهُ في قُلوبِ العبادِ، وأَنْ يُشعلَ مَحبَّةَ اللهِ في نُفوسِهِمْ، وأنْ يَجمَعَهُمْ عَلى طاعَةِ اللهِ في مجلسِهِ، ويُوحِّدَ صُفوفَهُمْ في الحياةِ عَلى نُصرةِ الإِسلامِ، وتَعظيمِ شَعائِرِ اللهِ وسُنَنِ الإِسلامِ.

ويَذكُرُ «الشّعرانيُّ» في «الطَّبقاتِ الكُبرَى»: أَنَّهُ «كانَ يَحضرُ مَجالِسَهُ في بَعضِ الأَحيانِ الخَليفَةُ والمُلوكُ والوزراءُ، فَيجلسونَ مُتأَدبينَ خاشعينَ، أَمَّا العُلماءُ والفُقهاءُ فَلا يَأتي عليهِمْ حَصرٌ، وقَدْ عُدَّ في بَعضِ مَجالِسِهِ أَربعمئة محبَرَةٍ».

كما أَكَّدَ غيرُهُ مِنَ المُؤَرِّخِينَ: أَنَّهُ لَمْ يُرَ في عَصرِهِ أَحدٌ يُعظَّمُ مِنْ أَجلِ الدِّين أَكثرَ مِنهُ.

❁ ❁ ❁

لا ريبَ أنَّ الشَّيخَ عَبدَ القادرِ الجيلانيَّ، لَمْ يَتبوأْ هذِهِ المَنزلَةَ العاليَةَ الرَّفيعةَ، ولَمْ يُحرزْ تِلكَ المَقاماتِ العَليَّةَ والكراماتِ السَّنيَّةَ، لَو لَمْ يَكُنْ جَمَّاعاً في شَخصِهِ وسُلوكِهِ لِلصفاتِ الحَسنَةِ، والخلالِ الحميدةِ المَحمودةِ عِندَ اللهِ والنَّاسِ، فَكانَ عَملُهُ عَملَ الأَنبياءِ الكرامِ، وسَمتُهُ سَمتَ المَلائِكةِ الأَبرارِ، ودَأبُهُ دأبَ الصَّالِحِيْنَ الأَخيارِ، وهِمَّتُهُ هِمَّةَ المُصلحينَ الأَنجابِ، هذا ما عَهدَهُ عليهِ مُعاصروهُ، ونَقلَهُ لاحِقوهُمْ إلينا، فَهذا الإِمَامُ الشّعرانيُّ يَذكرُ في طَبقاتِهِ الكُبرَى، وصفاً لِسلوكِ إمامِ العارفينَ عَلى لِسانِ أَحدِ مَنْ عاصروهُ، فيقولُ:

«ما رأتْ عَيناي أَحسنَ خُلُقاً، ولا أَوسعَ صدراً، ولا أَكرمَ نَفساً، ولا أَلطفَ قَلباً، ولا أَحفظَ عهداً ووداً، مِنْ سَيِّدِنا الشَّيْخِ عَبدِ القادرِ، ولَقَدْ كانَ ـ معَ جلالِ قَدرِهِ وعُلوِّ مَنزلَتِهِ وسِعَةِ علمِهِ ـ يَقفُ معَ الصَّغيرِ، ويُوقِّرُ الكبيرَ، ويَبدأُ بِالسَّلامِ، ويُجالسُ الضُّعفاءَ، ويَتواضَعُ لِلفُقراءِ، وما قامَ لأَحدٍ مِنَ العُظماءِ ولا الأَعيانِ، ولا أَلَمَّ بِبابِ وزيرٍ ولا سُلطانٍ».

وهذا صاحبُ كتابِ «قلائِدِ الجواهرِ» يَذكُرُ عَن الإِمامِ الحافظِ أَبي عبدِ اللهِ البرزالي الإِشبيليِّ قَولَهُ: «كانَ الشَّيْخُ عبدُ القادرِ مُجابَ الدَّعْوَةِ، سَريعَ الدَّمعَةِ، دائِمَ الذِّكرِ، كثيرَ الفِكرِ، رَقيقَ القلبِ، دائِمَ البِشرِ، كريمَ النَّفسِ، سَخيَّ اليَدِ، غَزيرَ العِلمِ، شَريفَ الأَخلاقِ، طَيِّبَ الأَعرافِ، معَ قَدمٍ راسخٍ في العبادةِ والاجتهادِ».

وكَأَنَّ إِمامَ العارفينَ بِصفاتِهِ وأَخلاقِهِ، يَرسمُ مَنهجاً قَويماً لِلسالكينَ إِلى اللهِ في مُختلفِ

العُصورِ، وفي كافَّةِ الأَجيالِ المُتعاقبةِ، فَيذكرُ صاحبُ كتابِ «قلائِدِ الجواهرِ» في موضعٍ آخَرَ مِنْ كتابِهِ فَيقولُ:

«كانَ الشَّيْخُ عبدُ القادرِ يَأمرُ كُلَّ ليلَةٍ بِمدِّ السّماطِ، ويَأكلُ معَ الأَضيافِ، ويُجالسُ الضُّعفاءَ، ويَصبرُ عَلى طلبَةِ العلمِ، لا يَظنُّ جليسُهُ أَنَّ أَحداً أَكرمُ عليهِ مِنهُ، ويَتفقَّدُ مَنْ غابَ مِنْ أَصحابِهِ، ويَسأَلُ عَنْ شَأنِهِمْ، ويَحفظُ ودَّهُمْ، ويَعفو عَنْ سَيئاتِهِمْ، ويُصدِّقُ مَنْ حلفَ لَهُ، ويُخفي علمَهُ فيهِ».

وكانَ مُغرَماً ﷺ بِالإِنفاقِ في سبيلِ اللهِ مِنْ فُضولِ مالِهِ، وفي مواساةِ الفُقراءِ والمُحتاجينَ، وإِطعامِ الجائِعينَ، وكانَ يَقولُ: «فَتَّشتُ الأَعمالَ كُلَّها فَما وجدتُ فيها أَفضلَ مِنْ إِطعامِ الطَّعامِ، ولا أَشرفَ مِنَ الخُلقِ الحَسنِ، أودُّ لو كانَت الدُّنيا بِيَدي لأَطعَمتُها الجائِعَ».

وكَأَنَّهُ يُريدُ أَنْ يُنَبِّهَ الأَذهانَ إِلى أَبرِّ فَضائِلِ الأَبرارِ الَّذينَ يُحبونَ اللهَ ويَخافونَ يومَ الحسابِ ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا﴾ [الإنسان: 8 ـ 10].

❁ ❁ ❁

ومِنْ أَعظمِ كراماتِ الشَّيْخِ عبدِ القادرِ الجيلانيِّ، ومِنْ أَكثرِها قُوَّةً وتَأثيراً عَلى حياةِ العبادِ والبِلادِ، إِحياؤُهُ لِلنُّفوسِ المَيتَةِ عَلى طاعةِ اللهِ ﷻ، وإِيقاظُهُ لِلقلوبِ المريضَةِ الخَربَةِ عَلى مَحبَّةِ اللهِ ﷻ.

ولَقَدِ اجتاحَتِ العالمَ الإسلاميَّ ـ بَفضلِ مواعظِهِ وإرشادهِ ودعوتِهِ ـ موجَةٌ عارمةٌ مِنَ النَّسائِمِ الرُّوحانيَّةِ، والنَّفحاتِ الإيمانيَّةِ، أَعادَتْ إلى الأَذهانِ صَفحاتٍ عَطرةً مِنْ تاريخِ الرَّعيلِ الأَوَّلِ مِنَ المُسلمينَ الَّذينَ اتَّبعوا الرَّسولَ ﷺ، وعَبدوا اللهَ بِإحسانٍ وإخلاصٍ، فَقَدْ مَشَتْ إليهِ بَغدادُ بِركابِها وعُلمائِها وشُيوخِها وحُكَّامِها، وسَارَتْ إليهِ جُموعُ المُحبينَ مِنْ جَميعِ أَصقاعِ مَملكَةِ الإسلامِ، وأَلقَتْ عَلى بابِهِ مَقاليدَ الزَّعامةِ الدِّينيَّةِ والرُّوحيَّةِ في العالمِ الإسلاميِّ، وكيفَ لا؟ وهوَ الَّذي كانَ يَجتمعُ في مَجلسِهِ سَبعونَ أَلفَ مُريدٍ ما بينَ قاعدٍ وواقفٍ وراكبٍ! حَتَّى جَعلَ مَجلسَهُ ـ بِسببِ ضيقِ المَكانِ ـ بِظاهرِ البَلدِ، وكانَ النَّاسُ يَسيرونَ إليهِ في اللَّيلِ عَلى الشَّمعِ والمَشاعلِ والسُّرجِ، وأَصبَحَتْ مَدينَةُ بَغدادَ عامرةً بِالنَّاسِ يَروحونَ ويَجيئونَ، وفي حركةٍ دائِبةٍ مِنَ المعاشِ في اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وصَوتُ الشَّيْخِ إمامِ العارفينَ يَصدحُ في آفاقِها داعياً العِبادَ إلى مَزيدٍ مِنْ طاعةِ اللهِ ومَحبَّتِهِ.

وفي «قَلائِدِ الجواهرِ» عَن الشَّيْخِ عُمرَ الكيسانيِّ ـ وكانَ مُعاصراً لِإمامِ العارفينَ وتلميذاً لَهُ ـ قالَ: «لَمْ تَكُنْ مَجالسُ الشَّيْخِ عبدِ القادرِ رضي الله عنه تَخلو مِمَّنْ يُسلمُ مِنَ اليَهودِ والنَّصارَى، ولا مِمَّنْ يَتوبُ مِنْ قُطَّاعِ الطَّريقِ، وقاتلي النَّفسِ، وغيرِ ذَلكَ مِنَ الفُسَّادِ، ولا مِمَّنْ يَرجعُ عَنْ مُعتقدِ شَيءٍ».

ويَحكي الشَّيْخُ «الجبائيُّ» ـ وهوَ غيرُ المُتكلمِ المَشهور ـ ما قالَهُ لَهُ إمامُ العارفينَ عندما أَعياهُ السِّنُّ قُبيلَ موتِهِ: «قالَ لي سَيِّدُنا الشَّيْخُ: (أَتَمنَّى أنْ أَكونَ في الصَّحاري والبَراري كما كُنتُ في الأَوَّلِ، ولا أَرَى الخلقَ ولا يَروننِي)، ثُمَّ قالَ: (أَرادَ اللهُ مِنِّي مَنفعةَ الخَلقِ، فَإِنَّهُ قَدْ أَسلمَ عَلى يَدي أَكثرُ مِنْ خَمسةِ آلافٍ مِنَ اليَهودِ والنَّصارَى، وتابَ عَلى يَدي مِنَ

العَيارينَ والمُسالحةِ ﷺ ـ وهمْ أَهلُ السِّلاحِ مِنْ قطاعِ الطُّرقِ وأَشباهِهِمْ ـ أَكثرُ مِنْ مئةِ أَلفٍ، وهذا خيرٌ كَثيرٌ)».

كما كانَ إِمامُ العارفينَ عالِماً حَصيفاً بِأَحكامِ الشَّريعةِ، وعلومِ السُّنَّةِ الشَّريفةِ، ومُقلداً لِمذهبِ الإِمامِ أَحمدَ بنِ حنبل، وكانَتْ طَريقَتُهُ في التَّوحيدِ ظاهراً وباطناً، ووَصفاً وحكماً وحالاً، ويَرَى الخروجَ عَنْ أَحكامِ الشَّرْعِ، أَو الشّطوحَ عَنها بِدواعي وحجَجٍ واهيَةٍ كما يَفعلُ بَعضُ أَصحابِ الطريقَةِ مِنَ المَجذوبينَ أَو الفرقِ الباطنيَّةِ أَو أهلِ البِدعِ، زَندقَةً وخروجاً عَنِ الدِّين، فَكانَ يَأمرُ أَصحابَهُ ويَقولُ لَهُمْ: «اتَّبعوا ولا تَبتَدعوا، وأَطيعوا ولا تُخالفوا».

ومِنْ أَقوالِهِ: «كُلُّ حقيقَةٍ لا تَشهدُ لَها الشَّريعةُ فَهيَ باطلةٌ. وتركُ العباداتِ المَفروضَةِ زَندقةٌ، وارتكابُ المَحظوراتِ مَعصيَةٌ. لا تَسقطُ الفَرائِضُ عَنْ أَحدٍ في حالٍ مِنَ الأَحوالِ».

توفيَ ﷺ سنةَ (561) هجريَّةً، وقالَ قبلَ لَفظِهِ أَنفاسَهُ الأَخيرةَ: «استَعنتُ بِلا إِلهَ إِلَّا اللهِ وهوَ الحَيُّ الَّذي لا يَموتُ، ولا يَخشَى الفَوْتَ، سُبحانَ مَنْ تَعزَّزَ بِالقدرةِ وقَهرَ عبادَهُ بِالموتِ، لا إِلهَ إِلَّا الله مُحمَّدٌ رَسولُ اللهِ».

الأسئلة والمناقشة

1 ـ إِلى ماذا كانَ الشَّيْخُ الجيلانيُّ يحفزُ همَمَ العبادِ؟

2 ـ ماذا جَدَّدَ إِمامُ العارفينَ؟

3 ـ إِلى مَنْ يَنتهي نسبُ إِمامِ العارفينَ، ولِماذا لُقِّبَ بِالجيلانيِّ؟

4 ـ مَنْ تكونُ أُمُّ إِمامِ العارفينَ، وما هيَ صفاتُها؟

5 ـ ما هيَ صفَةُ الشيخِ عبدِ القادرِ؟

6 ـ ما هيَ الطَّريقةُ الَّتي شاعَتْ عَنِ الشَّيْخِ عبدِ القادرِ، وماذا صارَ لهُ فيها؟

7 ـ ما هيَ الصِّفاتُ الَّتي ذَكرها البَرزاليُّ عَن الشَّيْخِ عبدِ القادرِ؟

8 ـ بِماذا كانَ يَأمرُ الشَّيْخُ عَبدُ القادرِ أَصحابَهُ ويَقولُ لَهُمْ؟